مُناقشات

رد على اتهام ...

بقلم : عبد القادر حافظ

***

رفع الاستاذ محيي الدين اسماعيل اتهاما للثقافة العربية المعاصرة، ملصقا بها نعوت الحيرة والتخلف وانعدام الخصائص الذاتية وفقدان القدرة على عناق القضايا الكبرى !

ونحن من جانبنا نقول ان الصواب والموضوعية قد خذلا السيد الكاتب بشكل جلي . ومرد هذه الظاهرة هو افتقاره بصورة اساسيه الى ايديولوجية علمية . لانها حجر الزاوية في كل بحث موضوعي او رأي عملي .

صحيح تمام الصحة ان ثمة جوانب من الثقافة العربية المعاصرة تشكو حالات من الخمول والضعف وانعدام التبلور الفكري . الا انها قبل ذلك وفوق ذلك لا يمكن التجني عليها كما فعل الكاتب . وانما هناك تيارات فكرية في خضم هذه الثقافة ، تتسم بالنشاط على صعيد الحركة والديناميكية . وكذلك تبدو وكانها اوشكت على الولوج في محاولة جادة لصياغة شخصية عربية لها صداها في مسرح الحضارة البشرية المعاصرة .

فالثقافة العربية المعاصرة تلم بين جنبيها تيارات فكرية متضاربة، متزاحمة . ينتمي احدها الى اقصى اليمين . والآخر ترجع منابعه الى اليسار المتطرف .

ويمكننا ان نلقي نظرة عجلى على هذه التيارات لتبيان خصائصها وسماتها :

١ ـ التيار السلفي :

وهو الذي يستقي مصادره من التراث القديم ، الغث ، الفج . وبعبارة اخرى : انه يدعو للقديم لمجرد كونه قديما لا يميز بين الاصالة والفجاجة . بل يربط التقديس بالشيء القديم . ومن ناحية الايديولوجية الدينية فان الاسلام هو المنبر الذي يشجع شتات هذا التيار الذي يرفع لواءه سائر الذين ينطلقون من مواقف اخلاقية مثالية تدل على حسن الطوية ونقاوة النية . وكذلك الذين يجدون بهذا التيار التعبير الفكري الصادق عن طبيعة طبقاتهم الاجتماعية القائمة على الاستغلال والاحتكار .

وفي ميدان البحوث السياسية والدراسات الاقتصادية ، فهذا التيار يدعو الى عدم اعتناق وتطبيق الاشتراكية ، بحجة انها تتنافى ودينا وتقاليدنا الروحية وماضينا التليد . وعلى افضل الاحتمالات فانهم يدعون الى نمط معتدل من الاشتراكية . وهو النوع الديمقراطي التعاوني .

ونظرا لطبيعة روح العصر الحديث والتقدم العلمي والتكنولوجي وسيادة الافكار الاشتراكية العلمية ، فان هذا التيار اخذ يتضاءل شانه . ولم يعد بقادر على رفعه سوى الكهول والشيوخ الذين يمثلون ذهنية الجيل الماضي . اما الشباب المنخرطون بمعية هذه الجماعة ، فان ثمة اعتبارات وهمية وحقيقية تدفعهم الى هذا المضمار . منها اللعب على الوتر الحساس (الدين) والاعتزاز بالقيم الاخلاقية والتقاليد الاجتماعية وفقدان الرغبة الحقة في التجديد والابداع والوقوف بجانب قوى التقدم والحضارة العلمية . نتيجة عوامل طبقية (اجتماعية واقتصادية وسياسية) وفكرية وسايكولوجية . ويمثل هذا التيار ، عباس محمود العقاد .

٢ ـ التيار التلفيقي :

ويستهدف التوفيق بين القديم والحديث . واسباب ومسوغات وجود هذا التيار هي :

ا ـ تكلس بعض جوانب القيم الروحية والافكار الفلسفية، بحيث لم تعد تتلاءم والمرحلة التاريخية الراهنة .

ب ـ بروز مشاكل وقضايا جديدة لم يعرفها المجتمع القديم . ولهذا رات هذه الجماعة من الاصوب تطوير الدين الاسلامي والتراث الفكري والثقافة العربية ، بما يحقق لها الوجود العصري .

وتختلف الاجتهادات الشخصية والفقهية في هذا الخصوص . فمنهم من يدعو الى تطوير الدين والتراث والثقافة بحيث تتلاءم وطبيعة العصر الراهن . ويدعو آخرون الى استخدام المقاييس الحديثة والمذاهب التقدمية في دراسة كل من الدين والتراث والثقافة.وبالتالي استئصال واهمال الغث وتطوير وترسيخ السمين منها . ومن المفكرين الذين يقفون وراء هذا التيار محمد جواد مغنية ومحمود الشرقاوي .

٣ ـ التيار الفلسفي الغربي :

وهو التيار المنقول حرفيا من الفكر الاوروبي والاميركي . وقد هال الرجال الذين يقفون وراء هذا التيار ، واقع الفكر العربي قبل ثلاثين سنة . فلم يجدوا مناصا من نقل آخر انجازات الفكر الغربي الى الارض العربية دون اعتبار ان الفلسفات التي نقلوها تعبر عن طبيعة المجتمعات الاوروبية والاميركية . فالسيد عبد الرحمن بدوي نقل لنا الوجودية . وزكي نجيب محمود نقل الوضعية المنطقية ومحمد فتحي الشنيطي نقل البراغماتية . وهناك عدة كتاب نقلوا لنا البرغسونية .

ونحن لا نعترض على النقل والاقتباس . الا ان النظر الموضوعي يستلزم منا اشتراط هضم وتمثيل هذه الافكار الفلسفية . فلا يكفي ان نعرض وندعو الى فلسفة ما ، بل ناخذها بالدرس والتمحيص والنقد الايجابي بحيث يبعث كل ذلك نشاطا في شرايين الثقافة العربية الراهنة . ويساعدنا على صياغة شخصية عربية متميزة عن سائر الشخصيات القومية في بقاع العالم .

والجدير بالملاحظة والتسجيل ، ان اي واحد من هؤلاء الكتاب لم يفلح في تاسيس جذور اصيلة لفلسفته في الواقع العربي الراهن بسبب الروح الارتجالية التي سادت نظرته وعمله .

٤ ـ التيار الديالكتيكي :

ويمثله في الوطن العربي كل من الاحزاب الشيوعية العربية والماركسيين العرب . وفي الوقت الذي يعانق الشكل الرسمي طابع اجراءات وعقلية الفريق الاول . فان الفريق الثاني حاول مخلصا ان يقيم مزاوجة عضوية ما بين طبيعة الواقع العربي والنظرية الماركسية اللينينية .

وهناك حركات سياسية اعتنقت هذه النظرية برغبة مخلصة . ونحن لا يمكننا اتهام هذه الجهات المختلفة بالانحراف والمروق وزعامة التيارات الانشقاقية . فان الفكر الماركسي في كل من ايطاليا وبريطانيا وفرنسا بلغ شاوا عظيما من العلمية والموضوعية والاندماج الديالكتيكي مع آخر منجزات التقدم العلمي الباهر ، كما نصح بذلك انجلز في ديالكتيك الطبيعة . فان المرحلة الستالينية ـ وهذا كلام معاد مكرر ـ اضرت ابشع الضرر بالروح النقدية للفلسفة الماركسية العلمية . ويمثل هذا التيار من الماركسيين العرب ، اسماعيل المهدوي ومحمود اميين العالم وعبد العظيم انيس وابراهيم كبة ومحمد سلمان حسن .

وهذا التيار الفكري اخذ يترسخ ويتعزز في واقع الارض العربية نتيجة تصاعد حركة النضال الوطني والاجتماعي وازدهار الافكار الاشتراكية في كافة انحاء العالم وازدياد شراسة الامبريالية العالمية، وافول الفكر الغيبي والسلفي واليميني .

هذه هي الشرائح الرئيسية التي تتكون منها الثقافة العربية المعاصرة .

ونستنتج على ضوء ذلك ان التيار الاخير ، هو التيار القادر على ربط فكرنا وادبنا وفننا ونضالنا وحياتنا مع المسار الانساني التقدمي والحضارة الاشتراكية الصاعدة .

وبالرغم من المضايقات الرسمية وغير الرسمية التي يلاقيها رجال التيار الديالكتيكي فانه يحاول تعميم بصماته على سائر جوانب الثقافة العربية المعاصرة .

وكل الدلائل والبراهين تثبت ارجحية وجهة نظرنا .

ومن يتأمل هذا التبويب الاساسي للتيارات الفلسفية والفكرية والانسانية التي تكون جسم الثقافة العربية الحديثة ، يلاحظ بجلاء ان الاستاذ محيي الدين اسماعيل ينتمي بصراحة الى تيار الفلسفة الغربية الذي لم يستطع ان يصمد طويلا .

بغداد — عبد القادر حافظ

* * *

بين اربعة شعراء

بقلم : عبد الفتاح السيد

نشرت مجلة الآداب اربع قصائد لاربعة شعراء في اعدادها الماضية ... وانا أعرف منهم ثلاثة شعراء اما عن طريق القراءة لهم او عن طريق الندوات الشعرية التي تقام في القاهرة .

نشرت الآداب : قصيدة « وجه اختي » للشاعر العراقي المجدد بلند الحيدري في عدد يناير ١٩٦٨ . ونشرت قصيدة « فلسطينية » للشاعر محمد اسماعيل الاسعد في عدد مارس ١٩٦٨ . ونشرت الآداب ايضا قصيدة « زرقاء اليمامة » للشاعر محمد عز الدين المناصرة في عدد ديسمبر سنة ١٩٦٦ . ونشرت قصيدة « البكاء بين يدي زرقاء اليمامة » للشاعر امل دنقل في عدد مارس سنة ١٩٦٨ . وقد وجدت تأثرا واضحا في قصيدة محمد الاسعد بقصيدة بلند الحيدري فهو قد كرر المضمون وهو رثاء سميرة عزام وهو ايضا لم يكتف بهذا بل (هندس) قوافي قصيدته كهندسة قصيدة الحيدري ... اود ان اقول ان قصيدة الاسعد لم تقدم جديدا فهي قد كررت قصيدة بلند كما انها اخذت بعض المعاني من قصيدة لمحمود درويش شاعر الارض المحتلة . يقول الاسعد : (فلسطينية كانت وما زالت ... عيونك مثلما اهوى) ومحمود درويش يقول : (عيونك شوكة في القلب تدميني واعبدها ... فلسطينية كانت ولم تزل) .

وبهذا لم تتجاوز قصيدة الاسعد القصيدتين السابقتين ولم تقدم شيئا جديدا .

اما قصيدة الشاعر امل دنقل وقد قرات له قصائد رائعة في مجلة الكاتب القاهرية وفي الآداب وسمعته في ندوات القاهرة ... قصيدة امل متاثرة الى حد ما بقصيدة الشاعر المناصرة مع فارق هو ان قصيدة امل اكثر قوة من ناحية الشكل الشعري الجميل الذي اتبعه امل . وقد تابعت قصيدة المناصرة قبل عامين حين نشرتها الآداب ونشرتها مجلة « الحرية » او « فلسطين ملحق المحرر » على ما اذكر وسمعت تعليقا للشاعر صلاح عبد الصبور عن قصيدة المناصرة في البرنامج الثاني من القاهرة ... وتابعت قصيدة الشاعر الممتاز امل دنقل وقد اثارت ضجة في القاهرة ... وسأورد بعض التشابه بين القصيدتين :

يقول الشاعر المناصرة في قصيدته زرقاء اليمامة (طبقا لنص الآداب والذي حرفته قليلا مجلة الحرية) :

(لكن يا حبي الاول ... قلت لنا ان الاشجار تسير ... تقفز تركض في الوديان ... في اليوم التالي يا زرقاء ... في اليوم التالي يا زرقاء ... كان الجيش السفاح ... ينحر سكان البلدة في عيد النحر ... قلعوا عين الزرقاء الفلاحة ... خلعوا التين الاخضر من قلب الساحة) .

ويقول الشاعر امل دنقل :

(قلت لهم ما قلت عن قوافل الغبار ... فاتهموا عينيك بالبوار ... قلت لهم ما قلت عن مسيرة الاشجار ... فاستضحكوا من وهمك الثرثار ... ها انت يا زرقاء ... وحيدة عمياء) .

هذه مقاطع من القصيدتين ... وانا اقول ان الفضل في اكتشاف الرمز يرجع الى قصيدة المناصرة الذي سبق زميله بعامين في نشرها وان كانت قصيدة امل دنقل اقوى واكثر براعة من قصيدة المناصرة... وانا اكتب هذا التعليق تنبيها الى ان قصيدة امل دنقل قصيدة عظيمة تدل على ميلاد شاعر جديد بحق ووددت ان انبه لها لا ان اشوهها مع احترامي للشاعر المناصرة ... وشكري لمجلة الآداب .

القاهرة ـ الروضة — عبد الفتاح السيد

صدر حديثا

الأدب المسؤول

لفقيد الادب اللبناني والعربي

رئيف خوري

دراسات رائعة يمكن اعتبارها اجمل ما كتب الاديب الراحل ، معالجا فيها مختلف المشكلات الثقافية ، متناولا عددا هاما من الكتب الادبية بالنقد والتحليل بروح عميقة ونكتة لاذعة . كما ان الكتاب يضم نص المناظرة الشهيرة التي اجراها الفقيد مع الدكتور طه حسين في موضوع « لمن يكتب الاديب ، للخاصة ام للكافة ؟ »

منشورات دار الآداب

القصة بين الناقد والكاتب

بقلم : علي بدور

قرأت النقد الموضوعي الذي كتبه الصديق مجاهد عبد المنعم مجاهد في العدد الرابع . وقد تضمن النقد القصص المنشورة في العدد الثالث من « الاداب » .

ولما كانت القصص الثلاث (الفقراء يفقدون ثرواتهم) و (ملتقى النهرين) و (حكايات خلف الاسلاك الشائكة) قد اخضعت كلها لتقييم واحد من حيث توفر (الفكر) و (التنظيم) في كل قصة ، فقد أضحى واجبا مناقشته في ذلك باسلوبه ووفق تقييمه .

لا شك في ان الناقد ، هو قارىء قبل كل شيء ، ومن حق القارىء والناقد معا فهم القصص بالشكل الذي يطمئن اليه ، خاصة اذا كان الناقد قد تأثر بمنهجه الفكري او منهجه العقلي ، وقد فسر الناقد ان التنظيم « هو الشكل الذي يبرز الفكر وان الفكر هو اساس الابداع مهما كان نوع المجال الذي يشتغل فيه الانسان » .

واذا كان لي ان اناقش الصديق مجاهد ، فانني احب أن اناقشه في قصتي (الفقراء يفقدون ثرواتهم) وما أسبغه عليها من احكام جاءت في اكثرها غير منطبقة على الاسس التي اعتمدها لنقد القصة ومن هذه الاسس (الفكر) و (التنظيم) .

ان الناقد يرى ان الفكر كان واردا في العنوان ، ولكن القصة لم تتضمن مثل ذلك ، ولا أدري اذا كان الناقد يريد أن يشير الكاتب لذلك بصورة مباشرة الامر الذي يفقد القصة شفافيتها وعفويتها ، ذلك أن القصة تتضمن جانبا فكريا مهما كانت نوعيته ، ولكن هذا الجانب الفكري ينبغي ان لا يغلب الجانب الشفاف العفوي من القصة والا انقلبت القصة الى مقال .

وقد جاءت الجملة الاخيرة في القصة : (لقد كان ظهري ينوء بهموم ثقيلة ، ولكنها ليست بأثقل من هموم العائلة التي تبددت من بين يديها ثروة العمر الوحيدة) . فأعطت هذه الجملة للقصة المضمون الفكري وفسرت ماذا يعني (الفكر) الوارد في عنوان القصة : (ان الاطفال هم كل ثروة الفقراء ، فاذا ماتوا فكأنما فقد الفقراء ثرواتهم) !

ان الراوي في القصة ليس خارجا عنها ، بل هو من صميم العمل فكرا وتنظيما ، ذلك ان القصة كانت ترى من خلال عينيه وكان يحس باحداثها من خلال مشاعره وأفكاره ، فهو ليس محشورا فيها بل هو عنصر أساسي من عناصرها . ان الهدوء المتوتر هو الذي رصده الراوي من خلال موت الطفل وصمت اكثر الركاب وعدم انتباه الجابي لوالد الطفل وهو يقول له بعد أن أمره باطفاء اللفافة :

ـ عفوك يا سيدي . ان ابني مات !

ولكن الجابي هنا لم يسمع ، واذا كان سائق العربة في قصة تشيكوف لم يجد من يسمع له .. فان معاون سائق العربة هنا لم يسمع قصة الوالد الذي فقد ابنه . ان تصرفات الناس تتشابه ولكن رصدها يختلف . وهنا يكمن العمل الفني وتكمن جماليته .

بقي الشكل .. او التنظيم .

في القصة بعامة ، والقصص الناجحة بخاصة ، يختلط الشكل بالمضمون ، أو يختلط الفكر بالتنظيم بحيث لا يمكن فصلهما الا للدراسة او التحليل ، ولكن القصة وهي عمل فني أصيل ، تختلط فيها الاشكال بالمضامين ، كما يختلط السكر بالماء .

وقد تسرع الصديق مجاهد ـ كما أرى ـ في حكمه على القصة من حيث فكرها وتنظيمها عندما أراد الغاء الراوي من القصة . والواقع ان القصة كلها هي الراوي ، لان الرصد لم يكن رصدا ماديا ، بل كان رصدا نفسيا . لقد نقل الراوي الحدث كما نقل انفعالاته مع الحدث ، ولو كان هناك في الباص انسان اخر يراقب العائلة الفقيرة التي فقدت ولدها ، فقد يكون له طريقة أخرى في التعبير عن الفكر بالتنظيم الذي يراه مناسبا .

ولقد كان النقد ولا يزال قبل التقدم من الاثر الفني لوضعه في قوالب جاهزة من الاحكام ، هو محاولة كشف جوانب الصدق والجمال في الاثر المنقود ومحاولة التأكد من العطاء الذي قدمه هذا الاثر الفني للنفس الانسانية كي تتقدم على طريق الامل من أجل حياة جميلة لسائر بني الانسان .

حلب — علي بدور

***

هذه الاتهامات ..

بقلم : عمر محمد الحاج ابراهيم

طالعتنا « الاداب » في عددها الثالث أول مارس ١٩٦٨ (برأي للمناقشة) تحت عنوان « انى أتهم ثقافتنا المعاصرة ! » للاستاذ محيي الدين اسماعيل يتهم فيه ثقافتنا المعاصرة (بالحيرة والتخلف وانعدام الخصائص الذاتية وفقدان القدرة على عناق قضايانا الكبرى) وينهم هذه الثقافة (بفراغها من أية اصالة ومغامرات جدية مسؤولة وانها لم تعد مأذونة على الاطلاق بالتحدث عن الانسان العربي وعن القيم والمثل والفضائل العليا) . هذا الاتهام الذي يوجه لثقافتنا المعاصرة (باطنا لظاهر، وجوهرا وعرضا ، أسلوبا وغاية، نهجا ومسلكا) وبموجبه توضع ثقافتنا في قفص الاتهام، وانه لاتهام خطير لتعلقه بأمر الجيل المعاصر الذي يناضل في الحياة من أجل أن يحيا .. والذي عليه أن يبني أمجاده .. ويحفظ تراثه وقيمه ومثله .. ويكتب تاريخه .. كفاحا من أجل ارساء قواعد النظام ، وثقافة وعملا متواصلا من أجل الانسان والحضارة الانسانية ..

ومهما كان نشاط هذا الجيل .. وضخامة ما حققه في شتى المجالات المادية والادبية فان هذا لا يعفيه من الاتهام .. وهل هذا الاتهام هو ادانة صريحة لهذه الثقافة ولهذا الجيل ؟..

ان من حق كل كاتب وباحث أن يتفهم ، والمتهم بريء حتى تثبت ادانته .. فالاتهام ليس ادانة صريحة .. والذي يتهم ليس هو الحكم وان حكم فان كل حكم يقبل النقد والالغاء التام .. ولهذا فان هذا الاتهام جدير بالمناقشة والبحث والدرس حتى نثبت الحقائق المتعلقة بقضيتنا وربما يثبت البحث حقائق خطيرة غائبة عن أذهاننا وعلى المهتمين بامر الثقافة والادب والعلم ان يقلبوا وجهات النظر ويصدروا حكمهم في هذه القضية الهامة ..

والحكم في قضايا الادب لا يعني التجريم والادانة على راس الاشهاد وكفى .. انه يعني التغير .. ويعني الحركة بعد الركود .. ويعني البناء الشامخ في مكان الانقاض .. ويعني البعث الجديد ..

ولهذا فان احكام الادب تعني الحياة والمرونة والانطلاق ..

وانطلاقا من هذا الفهم علينا ان نناقش القضية المطروحة امامنا الآن ..

يقول الاستاذ محي الدين في اتهامه : « لقد ولدت (حركتنا الثقافية المعاصرة) وفي صميمها موجبات نفيها والغائها .. لقد ولدت هذه الحركة من خلال حالة مرضية غير متسامحة ولا متفحتة ، ولدت تحت ظروف الذل والهوان ، وتحت وطأة مركبات النقص التي ينوء تحت ثقلها الرازح كل فرد منا ازاء الغرب وسطوته الفكرية القاهرة دون ان تكون لنا الطاقة الاصيلة الحية على ان ناخذ ونتمثل ونعطي ».

اذن فحركتنا الثقافية المعاصرة ولدت مريضة وفي صميمها موجبات نفيها والغائها . فالى أي حد يصح هذا الاتهام ؟ وهل هذه الحركة هي غير حركتنا نحن الذين نعيش كل هذه الظروف ؟

في رأيي ان قضية ثقافتنا المعاصرة تتعلق بقضايا هذا الجيل كله .. ومن اهم قضايا هذا الجيل ان يتحرر اولا وينطلق .. لقد عاش المواطن العربي فترة الانحطاط والذل والاستعمار ، وكان هذا

المواطن يؤمن بأن قضية تحرره ترتكز أساسا في طرد الاستعمار وازالة النفوذ الاجنبي .. وان انطلاقة المجتمع والرجوع به الى تاريخه وتراثه وحل مشكلاته المتعددة .. تكمن في عهد الاستقلال الحقيقي والسيادة والحرية الكاملة . وبعد الاستقلال وجلاء المستعمر عاد الفرد في المجتمع العربي الكبير يتساءل : (هل هو حر حقا ؟) .. وهو يرى أوضاعا متقلبة وأفكارا متضاربة وفلسفات تفرض نفسها بقوة الحديد والنار .. ووسائل الاعلام التي يدفع حسابها الشعب توجه توجيها غرضه الاول ان يبني دولة ويحطم اخرى .. ويذل قوما ويرفع آخرين .. يعز من يشاء ويذل من يشاء .. وخلف وسائل الاعلام كتاب .. ومفكرون وفنانون .. ثقافة جديدة .. وتوجيه جديد .. واقتصاد مرتبط بمصالح الاستعمار .. وازمات سياسية عنيفة تستنفد الوقت والجهد .. وأخيرا نكسة قاتلة نكوي ظهورنا الان .. وشد جباهنا نحو الارض حتى اصبحنا نخجل من الضوء اذا سطعت في افقنا الشمس كل صباح جديد .. وقد تجرعنا كأس الذل والهوان حتى الثمالة وسكرنا .. وانجبنا اطفالا هم اجيالنا القادمة وقد شهدوا لحظات سكرنا .. وانكسارنا ..

أليس من حق المواطن العربي وجيله القادم أن يسأل (هل هو حر حقا ؟) .. وانها لفضيحة كبرى ان نسأل مثل هذا السؤال بعد كفاح مرير دام بعده استقلالنا وحريتنا من قبضة المستعمر البغيض..

ولعل السؤال اصبح ضرورة لازمة لتكون الاجابة عملا ايجابيا وفي ثرى الارض المغتصبة حيث لا تعود الا بالدماء .. ونحن نشهد احتلالا جديدا بعد الخامس من حزيران يونيو ١٩٦٧ .. يقودنا الى العبودية والذل والهوان ..

ومهما يكن من امر فان كل مواطن عربي اخذ يعمل لامتلاك حريته .. وتحرير اقتصاده .. وأدرك اكثر من أي وقت مضى انه في صراع مستمر من اجل الحياة .. وتحقيق سيادته كاملة ..

ولا شك ان ثقافة جديدة في ظل هذه الظروف او تلك .. قد ولدت سواء في عهد الاستعمار او في عهد الاستقلال وفترات التيه والتخبط التي لازمت الاوضاع السياسية في البلاد العربية جميعا .

فهل هذه الثقافة قاصرة تحمل موجبات فنائها والفائها وهل بحثنا عن خصائصها وطبيعتها .. وما تحمل من ملامح لذاتية هذا الجيل سلبا وايجابا ؟ ..

الاستاذ محي الدين لم يضع يدنا على النصوص التي تقف كدليل نبحثه ونستخلص منه عناصر الاتهام ونتبين ما هو دور هذه الثقافة في فترة ما قبل الاستقلال وبعد الاستقلال وما هي المهام العاجلة التي عليها أن تحققها على ضوء الظروف الماضية والحاضرة وفي المستقبل..

والامثلة كثيرة متعددة في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. والادبية والفكرية .. فقد توالت على الوطن العربي احداث سياسية وثورية خطيرة وبرزت على صعيد الوطن العربي كله اتجاهات قومية ووحدوية مختلفة الآراء .. ومدارس اشتراكية .. ومدرسة اسلامية فكرية تشق طريقها وسط الشباب .. وتصطرع هذه المدارس والافكار في المحيط السياسي .. وكان لهذه الاتجاهات اثرها في الثقافة المعاصرة ..

واستطاعت الشعارات المرفوعة والتي وجدت الفرصة الكافية والسند العسكري .. ان تخلق مفاهيم جديدة لها مدلولها الخاص فالذي يسير في هذا الخط هو تقدمي متحرر وثوري مناضل ..والذي يخالف الخط التحرري الثوري والقومي هو رجعي متخلف متزمت ، وهكذا تفرقت بنا السبل وضربنا في التيه بسبب الشعارات الفارغة من المحتوى الفكري الاصيل ..

ولم يدر بخلدنا (نكون او لا نكون) وقد برزت هذه التيارات الى الوجود لتواجه صراعا عالميا حادا وكانت هذه التيارات القومية والاشتراكية وكل التيارات التي لا تستند الى فكر أصيل وفلسفة حياة متكاملة تقف ازاء هذا الصراع موقفا ضعيفا خائرا .. بعضها يقف محايدا حيادا هو في الاصل حياد ضعف لا قوة أو أصالة .. وبعضها تأثر بالصراع العالمي ولم يكن في موقف حياد ابدا .. ولغيبة المحتوى الفكري والاصالة .. وقف التيار القومي وقد احتمى بالشعارات واعتمد على وسائل الاعلام وسخر عددا من الكتاب والمفكرين وحاول ان يضع لنفسه فلسفة تحميه الى جانب الشعارات اليومية والاهداف القريبة والبعيدة . وعبر هذه الفلسفة والاهداف يحدثنا الاستاذ عبد الله يونس في مجلة ((الآداب)) عدد ديسمبر ١٩٥٩ فيقول شارحا اهدافها ومطالبها ما نصه : (وبذلك برزت الى الوجود العربي أهدافه الاساسية التي كان عليها ان تهب النضال العربي مضمونه ومحتواه.. وهكذا الى جانب الحرية كمطلب أكبر تبلور الهدفان الاخران الوحدة والاشتراكية ..

وكانت الوحدة للمرة الاولى اعمق من حدود سياسية زائفة مزروعة بافتعال في قلب الوطن العربي فكانت تعني خلاص الكيان العربي نفسه من التمزق وبروزها الى العالم كيانا واحدا متكاملا اثر عملية انصهار وخلق فعليين ..

والاشتراكية تعني شيئا اكثر من تحقيق مستوى أدنى من المعيشة للانسان العربي أذ كانت تهدف الى خلق التربة الغنية الصالحة التي تتغلغل فيها جذور الكيان العربي المتكامل والتي يستطيع فيها هذا الكيان أن ينمو ويزهر ويثمر ويقدم للانسان اشياء جديدة غنية ..).

وبالطبع لكي يكون هذا الكيان متكاملا فلا بد له من اخلاق ومثل وفضائل عليا .. وثقافة تؤثر فيه ويؤثر فيها .. اذن فما هو دور الثقافة التي هي متممة لهذا الكيان .. ؟ وما هو دور القيم والمثل التي تبرز وجودها الثقافة وتحكم عقدها .. ؟ .. ونعود لنسأل ما الذي حققه المجتمع العربي في الحرية والقومية والاشتراكية وهي اهدافه الاساسية ؟ .. وما هي طبيعة ثقافته وتأثرها بالحياة والاحياء.. او انزلها في المجتمع العربي في مسيرته للامام ؟ وهل هذه الثقافة حائرة حيرة الناس وهم يشعرون بفراغ داخل الانظمة السياسية والتحولات المجتمعية الخطيرة التي لازمت وجود المجتمع العربي كيانا يسعى للوحدة والاشتراكية ؟

وما هو موقف هذه الثقافة .. وما هو تفسير هذا القلق والحيرة عند المثقفين ؟ ..

لنترك الاسئلة المتقدمة فقد اجاب عليها الواقع العربي جميعا .. ولكن لا بأس أن نناقش على ضوئها هذا القلق وهذه الحيرة عند المثقفين ..

ان الازمة السياسية والمجتمعية قد شملت كل قطاعات الشعب العربي ما في ذلك شك .. وكان تأثر الشباب عظيما بهذه الازمة .. وكان طبيعيا ان يكون نتاج هذه الازمة طبقة من المثقفين تمثل جيل الرفض والثورة .. ولما كان الاتهام يتناول ثقافتنا (باطنا لظاهر .. جوهرا وعرضا ، اسلوبا وغاية ، نهجا ومسلكا) فاننا نتناول فنا من الفنون الممتازة التي تمثل صورا من ثقافتنا .. هذا الفن هو الشعر في اسلوبه وغايته ونهجه ومسلكه .. كاداة من ادوات الثقافة يتناول الحياة ويؤرخ لها .. ويلهب الحماس في عملية البناء والحركة والنضال والدفع .. ولنتناول الشعر المعاصر لتأثره بالتطور والثقافة الغربية .. فقد اتخذ هذا الشعر المعاصر شكلا واسلوبا جديدا غير الكثير من ملامحه ، وبالرغم من الخلاف بين انصار القديم والحديث فان الشعر الحديث يشق طريقه بتفعيلته وموسيقاه وجرسه ، وتميز شعراؤه بطابعهم الخاص واسلوبهم المعروف ولم يكتف هؤلاء الشعراء بترجمة الشكل الحديث للقصيدة الاوروبية ، وانما ذهبوا الى ابعد من ذلك محاولين نقل الجو النفسي لهذه القصيدة .. بعدة دوافع تختلف عند الشعراء .. قد تكون التقليد الاعمى .. وقد تكون التأثر بهذا الجو .. وقد تكون البحث عن طريق جديد وسط الدروب. وقد استعان هؤلاء الشعراء بنفس المصادر التي يستعين بها الشعراء الاوروبيون وان كانت هذه المصادر (قائمة على الحضارة الاغريقية ـ اللاتينية المسيحية) .. ولا يهم كثيرا الاخذ من هذه الآثار بحوافز مركبات النقص ومولداتها وتحت ظروف الذل والهوان) او انهم نقلوها

بحوافز الانماء الحضاري او بحثا عن المخرج عن طريق ذلك الخيال المتفتح الذي يتناول الانسان كقيمة وصورة ذاتية لضمير الانسان وهو يتعذب من أجل ان يصل الى الحقيقة الكلية او ان ظروف الذل والهوان كان لها الاثر المباشر في تغيير الوجهة العربية الى تلك المصادر .. كل ذلك قد حدث وكان لا بد من وجود الناقد الحصيف الذي يخلق المعركة الحية الهادفة ، فمن طريق هذه المعارك حول كل المفاهيم الجديدة والقديمة تبرز الاصالة وينبت في الاذهان العمل الاصيل سواء أكان نقدا او نتاجا ثقافيا ..

وفي صورة الشعر المعاصر تنعكس الملامح الاوروبية التي تبدو في خيال الشاعر وهو يهتم بالصورة الذهنية .. وبالاسطورة والرمز ، فقرأنا لهؤلاء الشعراء المعاصرين في ادبنا العربي صورا تحكي عذاب الانسان على ممر الاجيال وتحكي المأساة الانسانية كما في اسطورة سيزيف مثلا ، وقد صوروا ازمة انسان العصر بجفافه ونضوبه كما في (الارض الخراب) وتحدثوا عن المسيح وصلبه وهو يتعذب من اجل الانسان وكيف حمل صليبه ومصى ، واشترك في تصوير هذه المشاهد شعراء مسلمون ومسيحيون بالرغم من اختلاف المسيحيين والمسلمين جوهريا في مسألة المسيح عليه السلام ..

اذا فقد تناولت الثقافة العربية الانسان والانسان العربي بالقدر الذي وصلت اليه .. اختلفنا او اتفقنا في الكم والكيف .. والسؤال ماذا يعني ذلك الذي نطالعه من اثار ثقافية .. أليس هو البحث عن المخرج والبديل لهذه الاوضاع المتقلبة وانصراع الفكري والعاطفي والروحي وابتعاد هذه الفلسفات المتضاربة (الوافدة) عن روح هذا الشعب العربي وطبيعته واصالته وتراثه وقيمه ومثله .. ؟

قد نختلف في ذلك .. ولكن لا يختلف اثنان في ان الاستعمار قد اورثنا تركة مثقلة اثرت في الاسرة فافسدت الكثير من عاداتها وتقاليدها .. واثرت في المدرسة فاحدثت انفصالا بين الاسرة والمدرسة وخلقت بذلك صراعا نفسيا حادا في ناشئة الامة .. وفي المجتمع نتج منها هذا الصراع وهذا القلق والضياع الذي نقرأه في الشعر ونشهده في انظمة الحكم وسلوك الحكام وطبيعة المجتمعات العربية على اختلافها .. وهي تنمسك بالقشور وتترك اللباب ظنا منها انها تسير نحو المدنية والتقدم والحرية والانطلاقة من قيود الماضي . يقول الاستاذ محي الدين في مناقشته : (وقد تحدثنا عن القلق وضغط المدينة وعقدتها وحديثنا ذاك لم يكن سوى تقليد سمج لما قرأناه من جيمس جويس وعنه وكذلك من امثاله ومنهم ممن انصرعوا تحت وطأة الصناعة المتقلبة في المدن الكثيفة الخانقة وعندنا ما تزال السماء نقية طاهرة في القاهرة وبغداد وبيروت ودمشق) . صحيح اننا تحدثنا عن (القلق) عندما طلبوا منا أن نتحدث من جانب واحد وان نكتب ادبنا كما تكتب الصحف عنوانا عريضا واحدا .. وبحثنا عن تراث الآخرين في الغرب عندما طلبوا منا ان نكتب مقدمات لتراثنا نبدأها من النقطة التي وقفنا فيها لننتهي عندها .. فدخلنا في حلقة مفرغة هي القيد .. والبحث عن الخروج منها هو الغاية .. وفقدنا الشجاعة فعشنا في قلق وضياع فلم نجد من الوسائل الا هذا التعبير عن (القلق) وكفى .. وكان الموقف ان نقول : الحرية .. الحرية .. ونسعى لتحقيقها ..

هذه هي النقطة الهامة .. وتحدثنا عن القلق لاحتكاكنا بالمجتمعات الاوروبية وثقافتها المنطلقة التي تتناول كل شيء بصراحة تامة وتنقل الينا قلق مجتمعات صناعية هي الاخرى تبحث عن القيم ولا تجد الا الفراغ الروحي والتناقض بين الحياة والدين الذي لا يلبي اشواق الفرد حيث تسير الحياة في جفاف مستمر وانعكست هذه الحياة بجفافها وفراغها في قلق الشعراء والكتاب ، وقد أثر هذا القلق الوافد .. والداخلي في ثقافتنا المعاصرة حيث (نستهلك) نحن في العالم العربي كل ما يفد الينا ..

ولعل هذا الاختلاف والتغير في الشعر العربي المعاصر يرجع الى تأثير الشعراء بالمفاهيم الغربية والشعور بالتغير المستمر في حياة المجتمع العربي وتطلعاته الى الامام والعالم من حوله يتغير .. وهذا التغير احدثه التطور الاجتماعي والاقتصادي والنفسي كما يعلل ذلك الاستاذ محي الدين محمد في عدد مجلة (المجلة) القاهرية العدد (٧٩) يوليو ١٩٦٣ حيث يقول : (وهذا الاختلاف بين الشعر العربي الحديث والقديم ليس اساسه الحاجة الى هيكل للتغيير يكسر من حدته الالتزام السطحي بالقافية الواحدة . ونظام الشطر الواحد بل هو التحول الذي أحدثه التطور الاجتماعي والاقتصادي والنفسي وقد دعت هذه الحاجة الشعراء الى الاستزادة من حصيلتهم الثقافية ودعتهم الى كتابة شعر يتخذ الشكل الاوروبي وينهج نهجه ..) .

ويقول : (أن مرحلة الوعي التي يمر بها العربي المعاصر في كافة مجالات حياته اعطته الحق في ان يغير كافة ما يراه تقليديا ومعاكسا لتطوره فلماذا لا يتغير فكرنا اذا كانت حياتنا تتغير بتأثير هذا الوعي وبتأثير التطور العظيم الذي حدث في ارضنا واذا كان هناك اقل من الثورة الذهنية كيما يتحقق هذا الشكل العظيم من الاحياء الحضاري).

هذا تعليل مقبول يتفق معنا في ان الجيل المعاصر يبحث الان عن الجديد في الحياة وان كان يفقد الحرية ولا يمكن أن نتخلف اجيالنا والعالم يتحرك في سرعة مذهلة .. والحضارة ليست ملكا لبلد دون بلد ، هي مجد الانسان حيث كان .. والعلم الذي يوصل الى بناء الحضارة هو العلم الذي كالماء والهواء للانسان ..

وهكذا كانت محاولات الجيل المعاصر وثقافته محاولات تكتنفها الشكوك والخوف بسبب الانظمة التي ورثت كل مخلفات الاستعمار الذي يحارب الجديد .. ويحارب النور .. ويخطط لتعيش شعوبنا في ظلال دامس .. وكان على الشعوب العربية أن تغير حياتها بعد الاستقلال وتسير بخطى ثابتة لتحقيق الاستقلال والحرية .. ولكن رياح الخلاف كانت عاصفة والبذرة التي زرعها الاستعمار في وسط المثقفين اتت ثمارها ، وكانت هذه (الغربة) غربة المثقفين عن لغتهم الام .. وعن تاريخهم .. وتراثهم .. وواقع شعوبهم المؤلم ..

فماذا نريد من ثقافتنا : هل نريدها ان تتحدث عن الانسان وبأي لغة تتحدث .. وبينها وبين اللغة جفاء ؟ .. وبأي اسلوب وهي تبحث في الاساليب الغربية ، وبأي نهج وهي تنهج نهج الثقافة الواحدة ؟. لقد فعلت ثقافتنا في الحدود التي تحدها ما فعلت .. وتأثرت .. وما اثرت .. وكان عليها ان تؤثر .. وتفرض وجودها .. وتتحدث عن كياننا .. والوجود الانساني .. ولكن كيف نطلب من الذي يعاني ازمة فاشلة ان يبحث عن ازمات الآخرين .. ؟

اننا نعاني من ازمة افقدتنا حريتنا .. واصالتنا واورثت اجيالنا الضعف .. والخوف .. والخور ..

اننا نعيش في أزمة فاشلة نحس بها في كل جوانب الحياة ..

ان ثقافتنا لا تتحدث الا عندما نقرر (ان نكون) وهذا يعني الثورة على كل اوضاعنا .. ثورة في الداخل ، داخل كل فرد .. وتغير مستمر على كل المستويات يحقق الحرية والديمقراطية حتى يشعر كل فرد بانه حر يملك حريته .. في القول والتغير .. وبمحض ارادته يسعى لتحقيق خير المجتمع وسعادة أفراده .. أن علينا ان نبحث عن تاريخنا .. وتراثنا لنبني الحياة الجديدة على اساس القيم والمثل والفضائل العليا ، وعندها ستكون ثقافتنا في موكب الانسان ، تتحدث عن الانسان الذي ولد حرا .. ليعيش حرا .. وعندما يخدش الطاغية كرامة الانسان وحريته يقف في وجهه ذلك البطل الحر الذي يعبر عن ارادة الشعوب وهو ينطق قولة الحق : (كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ..؟) .. وعندها ستكون ثقافتنا قد انطلقت من محيط العنصرية الضيقة وحلقت في رحاب الانسانية تبني مجد الانسان على اساس من الفكر والمعرفة .. والايمان .

واد مدني (السودان) **عمر محمد الحاج ابراهيم**